بين العقـــــاد والرافعى

١ – الدين والأدب

٢ – سارة وغزل العقاد

للأستاذ سيد قطب

– ١٢ –

... وهذا أيضاً واحد !

وقد عرفت الآن نظام فريق الرافعى ! فى كل أسبوعين أو ثلاثة ، يتقدم « عضو منتدب » فيقول كلاماً ؛ ثم يدركه الاعياء ، وتفرغ جعبة الكلام عن « سيد قطب » بالذات ، فيجلس « ليأخذ نفسه ويبلع ريقه » كما يقولون ؛ ويتبعه آخر فيعيد الكلام الأول فى صورة جديدة أو فى الصورة الأولى نفسها مع لف وتطويل شديد !

هكذا قال الأستاذ « شاكر » ، وهكذا قال الأستاذ «الطنطاوى» ، وهكذا قال الأستاذ « سعيد العريان » ، وهكذا أخيراً قام يقول « الغمراوى »

ولست أدرى لم يطيل هؤلاء الناس هكذا فى الحديث ، ولم يمطون الأساليب مطّاً ، وكل ما قالوه حتى اليوم يمكن تلخيصه فى صفحة واحدة من هذه الصفحات الكثيرة التى شغلوها من « الرسالة » ، ولا سيما « المنتدب » الأخير ، وإنى لأشفق والله عليهم من هذا الكد الطويل !

ولكن من الانصاف أن نعترف لهذا الأخير ، أنه أتى بما لم يستطعه الأوائل ، فقد — والله — أخافنا وأفزعنا ، وهو يجعل المسألة « ديناً أو لا دين » ويلخص المعركة بين المدرستين القديمة والجديدة ، فى أنها المعركة بين أهل الجنة وأهل النار !

نعم هكذا مرة واحدة ؟ ومن لم يكن قد عرف الخوف فليعرفه الآن . فها هو ذا رجل يمسك بيده ميزان الحسنات والسيئات : فأما من كان مع الرافعى فقد أزلفت له الجنة ، وأما من كان مع العقاد فقد فغرت له جهنم أفواهها . وليكن من شاء كيف شاء ، فهو وحده الملوم !

فما قولكم . دام فضلكم !

الدين . الدين ... هذه صيحة الواهن الضعيف ، يحتمى بها كلما جرفه التيار ، وهو لا يملك من أدوات السباحة ولا وسائلها شيئاً

وأشد الجناة على الدين ، وأشد المشوهين له والمشككين فيه أولئك الذين يضعونه مقابلا للعلم تارة ، وللفن تارة ، ثم يحكمون أيهما أصح وأولى بالاتباع !

وللدين مهمة قام بها وأداها خير أداء فى إصلاح نفس الفرد للمجتمع ، وفى تهيئة هذا المجتمع لحياة الفرد ، بالنصح تارة وبالتخويف تارة ، وبالتشريع تارة ، وبكل الوسائل التى تكفل هذه الغاية الكبيرة ، على مدى الأجيال

من نفع عام إذ سلمت به الانسانية من العطب ونجت به من الهلاك

وما زال بيير كورى وزوجه جادين فى عملهما النافع حتى دهمهما القضاء بغتة ، على نمط مفاجأته لها بالثروة ، فقضى على الرجل العظيم واختطفه من أحضان زوجه وكريمتيه ، ولكن هذا القضاء لم يفل من عزيمة مدام كورى فقامت وحدها تفكر فى عملهما وفى بنتيهما ، ثم شمرت عن ساعدها ، وما زالت تخطو إلى الأمام حتى اهتدت إلى خاصة أخرى كانت لها مجداً ثانياً وفخراً أبدياً فى العالم أجمع

وهاهو ذا رئيس جمهورية الولايات المتحدة قد أهدى إليها قطعة عظيمة من الراديوم تقدر بالملايين ، بينما كان الملوك السابقون يهدون إلى العالم مسمطا (علبة نشوق) مزخرفاً بالجواهر . وكم من فرق بين مسمط لا خطر له وقطعة من الراديوم تعتبر تحفة نادرة وتجلب السعادة للملايين من الناس !

والحق يقال إن مدام كورى قد عانت آلاماً كثيرة وقاست هموماً عديدة ، ولم تكن مسرات الحياة لتسرّى عنها إلا فى النادر من الأيام ، ولكنها مع ذلك إذا دخلت مجلساً فان عظماء الفرنسيين وكبار علمائهم يقومون لتحيتها وإجلالها ، ذلك أن القدر قد رفع هذه العاملة البولونية الفقيرة، ووضعها فوق رؤوس الملكات والأميرات فى العالم كله

ترجمة سيد سليم درويش

ولم يأت الدين ليخوض فى المسائل العلمية البحتة ، ولم يأت ليكون منهاجاً فنياً . فكل زج به إلى الميادين التى لم يأت لها ، ظلم له ، وتعريض به ، وعمل كعمل الدبة التى تحدث عنها صاحبنا الحديث المحفوظ

يقوم الدين على الاقناع الوجدانى ، وعلى البحث العقلى ، بينما يقوم العلم — معظم العلم — على المشاهدات والملموسات ، والتجارب المحسوسة ، فليس من الحكمة وضع هذا مقابلا لذاك جهلا باتجاه الدين وغايته ، لأن كثيرا من النفوس يضطر لتصديق المحسوس المشاهد ، متى أرغم على الاختيار بين الطريقين !

وليس من الحكمة كذلك وضع الدين مقابلا للفنون ، فهذه خاصة بالترجمة عن النفس الانسانية وأحاسيسها وآمالها ، وليس هذا من اتجاهات الدين ، إلا فى الدائرة التى تهمه لاصلاح نفس الفرد للمجتمع ، والمجتمع للفرد ، على طريقته الخاصة . ومن الناس من يستعز بالخوالج والخواطر والآمال التى تجلوها الفنون ، لأنها تلمس كل عنصر حى فيه ، وليس من الحكمة أن نسوم هذا الفريق الاختيار بين طريق الفن وطريق الدين ، فى حين لا يعنى الدين ذلك ، ولا يرصد نفسه له ، وإنما هى الدبة التى تلقى الأحجار على وجوه الأصدقاء !

الدين . الدين . . . قولوها مئة مرة ، فلسنا والحمد لله ممن تخيفهم هذه الصيحات الفارغة ، ونحن أكثر منكم دراسة وفهماً للدين

ثم ما هذا الرجل « النمراوى » الذى يفهم أن « السن » هى الحكم فى المبادئ والآراء ، فما دام « سيد قطب » لم يولد إلا بعد أن كان المرافى أدب ، فلا يحق له أن يكون له رأى فى هذا الأدب ، ولا يجوز أن يسقطه إن كان يستحق السقوط

ما هذا الغبض الغزير فى « القواعد العلمية للنقد » ؟ وما يكون الشأن مع أدباء الجيل الماضى الذين ماتوا قبل أن نولد ، وما يكون الشأن مع شعراء الجاهلية ؟ لتناولهم بالتقديس ، أو لتعبدهم كالآلهة ! أليسوا قد سبق بهم التاريخ ؟ !

* * *

والآن فلندع ذلك « الفت والعجن » الذى ليس معه إلا إرخاص الوقت ، واحتقار المناقشة الأدبية ، وامتهان المعارف الانسانية

لندع هذا إلى عالم آخر . لنتحدث عن «سارة» قصة العقاد قصة الحب ، ترجمة لحياة قلب ، فإذا كان هذا القلب قلب العقاد أو قلباً صاغه العقاد ، فهي إذن ترجمة حياة ممتازة . وهذه هى « سارة » ، التى كان نصيبها من الصحافة المصرية (الصحافة التى تحابى العقاد) ! بضع كلمات ، لم تصل واحدة منها أن تكون فهماً كاملا لهذه الترجمة الممتازة ، ولم تصل الحياة الأدبية فى مصر أن تكون لهذه القصة شروح وقفرات تربى على حجمها الأصلى مرات . وهو الذى كان يجب أن يكون !

حين نقول عن هذه القصة : إنها تصوير صادق للحب فى النفس الانسانية ، لا نكون قد فهمنا شيئاً كثيراً منها ، ولكنا حين نقول : إنها « فيلم » فنى يستعرض قلباً وعقلا ممتازين أو «طبيعة فنية ممتازة» فى حب امرأة خاصة بكل معانى الخصوص نكون قد وضعنا شيئاً من الرموز لهذه القصة الفريدة

ليس فى القصة حوادث « فى الخارج » ولكنها حافلة بالصور النفسية الباطنة ، والخلجات القلبية المضمرة . وليست مصوغة على مثال من أنواع القصص ، ولكنها مصبوبة فى القالب الوحيد الذى يناسبها ، ويناسب طبيعة العقاد فى آن

ما الحب ؟

سؤال له عشرات الأجوبة ؛ ولكن أى نوع من أنواع الحب هو المراد بالسؤال ؟

إن للحب « أنواعا » شتى ، فلكل نفس حب ، وللنفس الواحدة صنوف منه شتى . فأى « صنف » منه كان حب « همام لسارة » فى قصة العقاد ؟

إنه حب الرجل الفنان الناضج ذى الطبيعة الممتازة ، للمرأة الممتازة فى نفسها وجسمها وطبيعتها

وإذا قلنا « الرجل » فقد عنينا الصحة والسلامة فى هذا الحب ؛ وعلمنا أنه قائم على أسسه الطبيعية الخالدة ، التى رسمتها الطبيعة للحياة يوم خلقتها ، وبهدت لها وسائل الدوام والخلود

وإذ قلنا « الفنان » فقد عنينا الاشراق والجمال فى هذا الحب

وعلمنا أنه متطلع إلى غاية من غايات الحياة الكبرى ، وأمل من آمالها المذخورة لكل قلبين تلمح فيهما فسحة التطلع والرجاء

وإذا قلنا «الناضج» فقد عنينا الفهم والمعرفة فى هذا الحب، وعلمنا أنه يعلم منشأه وغايته ، ويعرف ما يأخذ وما يدع ، ويحسن الانتفاع بكل قوة مذخورة فيه فى أقصر مدى ، وبأيسر المجهود

وإذا قلنا « الطبيعة الممتازة » فقد عنينا الامتياز فى نوع هذا الحب ، وعرفنا أنه ليس حب كل يوم وكل ساعة ، ولكنه المثال الذى تبدعه الطبيعة بعد مجهود لتقيس عليه وتبرز خصائصه ويهمها من أمره مالا يهمها من آلاف الأنواع الرخيصة المألوفة

فاذا تقابلت هذه الميزات مع امرأة « خاصة » فى طبيعتها ، فقد تم لهذا الحب كل عناصر الامتياز والتفرد ، وكان جديراً بفرضه فى سجل الحياة الممتاز ، الذى لا يحوى إلا بضع صور منتقاة فى عمر الحياة الطويل

وهكذا كانت « سارة » بقلم العقاد

* * *

وحين نريد أن نقوم بالشرح الفنى لقصة « سارة » نحتاج إلى مؤلف فى حجمها عشر مرات ، كما تخفف الشراب المركز باضافة أضعاف حجمه إليه من الماء ليصبح فى متناول الجميع ، شراباً تهضمه المعدات. وإذا كان هذا ليس مستطاعاً فاننا سنحاول استعراض شىء من نواحى الامتياز فى القصة ، بقدر المستطاع

يبدو فى بطل القصة ، الالتفات إلى كل ذرة فى نفس حبيبته ، وكل لحظة من لحظات حبه، وكل مظهر وكل لفتة وحركة فى الواقع أو الخيال ، ومن شأن هذا الالتفات أن يضاعف الشعور بالحب ، وأن يجعل منه عالما كاملا يموج بشتى الأطياف ، وشتى «الحيوات» ويخلق من هذه المرأة الواحدة ، عشرات « المرآت » الخواص الممتازات . وليس الرجل الذى يحب المرأة حبا مبهما ، مندفعا فى تيار الغريزة أو تيار الخيال الجامح ، كالرجل يحبها وهو متيقظ لكل ما يحب فيها وكل ما يجتنب ، وكل ما يرجى فيها وكل ما يخاف. وهو متنبه لخواطرها وحركاتها ، متحفز لتلقى معانيها وإشاراتها ، ملاحظ لأدق خصائصها ، وأدق خصائص نفسه معها ؛ فكل هذا معمق الحب ، مضاعف لما فيه من لذة واستمتاع .

وانه ليبلغ فى ذلك ألا تفوته منها دلالة الملابس التى ترتديها ، ودلالة الزينة التى تبدو فيها ، وإنه ليتعمق فى دراسة طبيعة جسمها والزمن الكافى لشفاء جروحها ، ويجرى كل هذه الملاحظات حيث تجرى فى تيار حبه ، ومتعته بهذا الحب ، فى كل لحظة وكل حالة !

والقصة مليئة بمثل هذه الالتفاتات نختار واحدة منها :

« وسارة كانت من ذوات الملامح والوجوه اللواتى لا يطالعنك بمنظر واحد فى محضرين متواليين : تراها مرة فأنت مع طفلة لاهية ، تفتح عينيها البريئتين فى دهشة الطفولة وسذاجة الفطرة بغير كلفة ولا رياء ؛ وتراها بعد حين — وقد تراها فى يومها — فأنت مع عجوز ماكرة أفنت حياتها فى مراس كيد النساء ودهاء الرجال . وتضحك ضحكة فتعرض لك وجها لا يصلح لغير الشهوات ، وضحكة أخرى — وقد تكون على إثر الأولى — فذاك عقل يضحك ولب يسخر ، كما تسخر عقول الفلاسفة وألباب الشيوخ المحنكين .

« هى تارة أم رؤوم تفيض بحنان الأمهات حتى ليوشك أن تسع به أطفال العالمين . وحسبك أن ترسمها هكذا ولا تضع فى أحضانها طفلا يرضع ولا إلى جانبها طفلا يدرج ، لتستحق الصورة عنوان الأمومة

« وهى تارة أخرى شريدة يوهيمية لم تستقر قط فى دار ولا وطن ، وما استقرت قط مع عشيق

« لها صورة إلى جانب سرير ، لو نحيت عنها السرير جانباً لمثلت لك راهبة خاشعة تهم بالصلاة ، أو ضحية من ضحايا الآلهة تساق إلى محراب القربان

« ولها صورة على سفح الهرم لو أخفيت منها الهرم لخلتها حورية مخمورة فى أرض يونان القديمة تهم بالرقص فى كروم باخوس.

« وكان هيام يراقب هذه الشخوص ويتصفح هذه الوجوه وهو منتبط تارة ، ومشفق تارة أخرى ، ويعزو تقلبها واطرادها إلى الفتوة الحية التى لم تحبس فى محابس الأفكار والعادات والتقاليد ، فهى أبداً فى أيدى العواطف والنوازع ، كعجينة الخلق المهيأة للصوغ والتركيب فى كل ساعة »

ونقول نحن بعد قول العقاد : « وكان هيام يتمتع بكل هذه الشخوص فى حب واحد ، كما قالت سارة له فى فكاهة بارعة

صادقة : « احمد ربك . عندك من سارة المظلومة حريم كامل ، فلا تشكر نفسك كثيراً على الوفاء »

وصحيح أن سارة صاحبة الفضل لأنها صاحبة هذه الشخوص ، ولكن « هاما » صاحب الفضل الأول فى الفطنة لها ، والاستمتاع بها . أو قل : هو العقاد صاحب الفضل ومنشئ سارة وهام !

ويكمل هذا ذلك الحوار البارع الطريف ، الذى عقده العقاد ، بين شخوص سارة المختلفات ما بين صفحة (١١٦) وصفحة (١١٩) من الكتاب

* * *

ويلفت النظر في هذه القصة ، ذلك المزج الغريب بين متعة الروح ومتعة الجسد ، بحيث لا تفترقان ولا تتميزان ، فأنت تجد « هاماً » يحب فى « سارة » روحها وعقلها وجسمها ، ولكن هذه كلها مزاج واحد ، وقد ارتفع بلذة الحس فيها إلى الروحانية الصافية ، ولكنها ليست روحانية الخيال الغرير ، بل روحانية البحر القوى يطهر كل ما فيه ويجلوه ويحييه

وإنك لتقرأ رسالة هام إليها فتدرك منها كل شىء . وإليك بعضها وهو يحاول استنقاذها من السقوط الجسدى الرخيص

« أذكرى نوبات الحيرة وتبكيت الضمير التى كانت تساورك حين تحضرين إلى ، واذكرى كيف كنا نفترق وقد هدأت نفسك بعض الهدوء واستراح ضميرك بعض الراحة ... كان اهتمامى بك حتى بالغضب عليك يفرج شيئاً من الضيق الذى يسد عليك منافذ الأمل لأنه يعطيك فكرة عالية فى نفسك ، فيعزيك ويقويك ويرفع عنك ذلك الصغار الذى يسمم كل شعور وينغص كل نعيم

« أذكرى كيف كان وجهك يشرق بالبشاشة من عهد قريب ، وكيف ظهر ذلك على سحنك وملامحك ، فسألتنى فى يوم من الأيام بين الجد والمزاح : أصحيح أن وجهى يتلئ ويحلو ؟ كان ذلك وأنت تشعرين إلى جانبك بنفس إنسانية تحنو عليك وتفكر فيك ، وتجتهد فى عذرك ما استطاعت ، وترعاك فى الغيبة والحضور . وهذا أحوج ما تحتاج إليه المرأة خاصة فى هذه الحياة

« فكل امرأة — بلا استثناء — فى وسعها أن تجد رجلا يأخذها جسداً ، ويطرحها سائماً بعد حين ، بلا أسف ولا شكر ولا احترام

« ولكن ليست كل امرأة واجدة تلك النفس العطوف التى تفهم الدنيا وتفهمها ، وتحب لها الخير لغير غاية ، وتهتم بها وحدها بين جميع الناس وتراها أهلاً للرضى والغضب والشكر واللام »

وأنت خليق أن تدرك أكثر مما تشير إليه هذه الرسالة متى علمت أن «سارة» أو شبيهتها فى موقفها هى المعنية بهذه الأبيات:

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى ... وأرتاد فيك اللهو بعد التنبد
وألقاك جسما مستباحاً وطالما ... لقيتك جم الخوف جم التودد
رويدك إنى لا أراك مليئة ... بلذة جثمان ولا طيب مشهد
جمالك سم فى الضلوع وعثرة ... ترد مهاد الصفو غير ممهد
إذا لم يكن بد من الحان والطلا ... ففى غير بيت كان بالأمس مسجدى

فتدهش حين ترى المتاع الحسى بامرأة ، لا يخلع عنها روعة المسجد ، ولا يجعل صاحبها يرتاد فيها اللهو بين الحان والطلا ، بعد التنبد والتردد

ومما من شك أن هذا إحساس فريد جدير بالتسجيل والبروز لأنه من النماذج التى لا تجود بها الطبيعة إلا وهى شحيحة ضنينة ، وما تختص بها إلا نفس فنان عظيم ، تتطهر فيها الأرجاس وتشرق وتشع المواد المتكتلة ، فاذا هى أشعة وظلال

* * *

ومن الأحاسيس الفريدة فى « سارة » موقف « هام » مع حبيبته يوم جاءت تعترف له بأنها خانته فعلا ، فلم يجد فى هذا الاعتراف ما يستوجب قطع صلاته بها ، لأنه كان يحس أن هناك ذخيرة موفورة له فى نفسها ، وفيضاً غزيراً لها فى نفسه . وهو يقول فى هذا :

« لم يشعر ذلك اليوم وهو ينتظرها بخداع ولا استغفال ولا احتقار . ولكنه شعر بخسارة وأسف ، وانتظرها كما ينتظر الطبيب مريضاً يلجأ إليه ، واستقبلها عاطفاً عليها متطلعاً إلى ما وراء حديثها ، مستعداً للتسامح فى الاصغاء إليها »

وبينما يتلقى اعترافها هذا بالقبول ، ويستأنف بعده صلاته بها ، وإذا به يقاطعها بعد ذلك لمجرد الوساوس والظنون ، لماذا ؟ لأن الذخيرة النفسية بينهما قد نضبت ، فلم يكونا فى حاجة بعد ذلك إلى دليل حاسم ، ولا اعتراف مكشوف

وهو يصف الفرق بين الحالتين ، ذلك الوصف الفريد :

« فى تلك الأيام كانت كل هنيهة لها شعورها المحبوب المتجدد البهيج . إذا انفتح الباب للقاء ، فذلك شعور القائد الذى يفتح باب حصنه ، ليتلقى نجدة الأمان والاطمئنان إلى زمن طويل ، وليطرد المخاوف من وراء ذلك الباب إلى مهرب سحيق ؛ وإذا انفتح الباب للوداع ، فذلك شعور الشارب الذى استوفى نصيبه من العقار ، وبقى له نصيبه من النشوة والتذكار ، ونصيبه من الشوق فى الغد إلى مثل هذا اللقاء ، ومثل هذا الوداع ، ومثل هذا الانتظار ؛ وبين لقاء كل يوم ووداعه ألف لقاء وألف انتقال من حال إلى حال ، وألف سكينة وألف ابتدار

« تلك أيام !

« ثم جاءت بعدها أيام

« وشتان أيام وأيام

« نعم شتان حقيقة وتمثيل ... وأي تمثيل ؟ ! تمثيل اللاعب الذى يساق إلى دوره سوقاً لأنه يخشى الفشل ، لا لأنه يأمل النجاح

« واستمرت المواعيد ، واستمر اللقاء ، واستمرت السآمة واستمر الشقاق ، واستمرت مع كل ذلك محاولات عقيمة مستميتة أن يعود ما لا سبيل إلى أن يعود

« وكانت هى تقلد نفسها فى أيام الصفاء ، فتمد يدها إلى جيبه بعد عاصفة من اللوم الجارح ، والملاحاة الموجعة ، كما كانت تمد يدها إلى جيبه بعد ساعات الرضا والدلال ، لتخرج منه المفكرة المعهودة ، وتكتب فيها أسطراً أو كلمات تسجل بها ما كان فى ذلك اليوم ، فكتبت يوماً بعد مقابلة لم يسمع فيها إلا جدال ومحال ، أو سكوت هو أثقل من الجدال والمحال : « نزهة رسمية فى عربة ، ثم مناقشه جدية ، ثم مصالحة وتقبيل ، ولا عجب فى ذلك ... فان الحب يسهر ! »

« نعم يسهر من الأرق لا من العناية !

« وسهر الحب إلى اليوم التالى فالتقيا وتراضيا ، وتناولت هى المفكرة وكتبت فيها خمس كلمات : « سامحت من غير سبب . أحبك »

ولكنها كانت آخر ما كتبت فى مفكرة ذلك العام . وفيما بعده من أعوام »

بهذا التصوير البارع يسجل الفرق بين الحالتين : فليس بدعا أن يعفو فى الأولى مع الاعتراف ، وأن يجفو فى الثانية لمجرد الشكوك

ولو كان — غير المقاذ — واحد من السطحيين ، أو الدهنيين لجعل القطيعة فى الأولى أمرا مقضيا بعد الاعتراف ، أو لجعل القطيعة فى الثانية أبعد الاحتمالات !

أليس هذا هو منطق الذهن ؟ قد يكون ذلك ! ولكن للنفس وللفطرة الصادقة منطقا آخر ، هو الذي صوره العقاد فى نفس « همام »

وهذا ما نعنيه بأدب الطبع ، وما نعنيه بفسحة النفس ، وما نعنيه بامتياز الإحساس

***

وبعد ففى « سارة » حديث آخر ، وفى غزل العقاد حديث أبقيهما إلى الأسبوع القادم . فإلى اللقاء

الاسكندرية

سيد قطب

مؤلفـــات

الأستاذ محمد كامل حجاج

٤٠ بلاغة العرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة المشيية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب الشهيرة
وكتب الزراعة تطلب من
شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا